موقف الرسول الأعظم بين النصرانية والمجوسية و اليهودية فى الناحية السياسية

للشيخ جميل بيهم

الانقلاب السياسى الذى حققه فى جزيرة العرب

ما أشبه الليلة بالبارحة

"كان العالم فى القرن السابع للميلاد مقسما ، كما هو الأن الى كتلتين : كتلة شرقية تتمثل بالدولة الفارسية ، وكتلة غربية تتمثل بالروم أصحاب الأمبرا طورية البيزنطية . وكانت الحروب بين هاتين المملكتين العظيمتين تكاد تكون متصلة . و مدارها الزعامة على العالم . أما النصر فكان سجالا بينهما . و فى هذا الصراع كان العرب منقسمين أيضا الى فئتين ، فئة تناصر الكتلة الشرقية و أخرى تناصر الكتلة الغربية .

و كان لهم فى ذلك الوقت دول مستقلة أهمها آل غسان فى الشام ، و آل لخم فى الحيرة ، و كندة فى حضرموت ، و حمير فى اليمن . و كان آل غسان على رأس الكتلة العربية الموالية للروم ، بينما كان آل لخم على رأس الكتلة العربية الموالية للفرس على الرغم من أنها كانت على غرار آل غسان تتدين بالمسيحية .

و أما العدنانيون فى الحجاز و نجد و تهامة فكانوا على الاكثر تابعين بميولهم لدولة حمير فى اليمن التى كانت و قتئذ خاضعة لفارس بعد أن ساعدتها هذه على التحرر من الحبشة .

الصراع بين النصارى واليهود فى جزيرة العرب

على الرغم من أن جزيرة العرب كانت تتدين على وجه عام

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

بالوثنية فأنها تركت الحرية كاملة للاديان الأخرى فتنصرت بعض القبائل و على رأسها كنده ، وتهودت سواها ، و كان بينها بعض عواهل حمير. و كان نصارى العرب فى الجزيرة حزبا للروم أصحاب قسطنطينية، بينما كان اليهود ، على الاطلاق، أعداء الروم حزبا لآل ساسان. و ترجع عداوتهم للبيزنطيين الى يوم أخرجوهم من فلسطين، و هدموا هيكل سليمان فى القدس . لذلك فأن المناظرة بين المسيحية و اليهودية فى جزيرة العرب لم تلتزم حد الحوار المجرد بل تعدته الى عداوة شديدة كانت منطلقا لنيل كل منهما من دين الأخر بالتسفيه و التكذيب .

و أما مكة التى كانت قاعدة الوثنية فقد كانت شبه جمهورية مستقلة ذات صبغة دينية ''أوتوقراطية'' وأريستوقراطية. وكان حكامها آل قريش و من كان يدور فى فلكهم من عرب أواسط الجزيرة يؤيدون فارس أسوة باليمن صاحبة الزعامة فى جزيرة العرب.

الانقلاب الذى حققه الأسلام فى جزيرة العرب

رحب النصارى بالاسلام أبان الدعوة المحمدية ذلك بأنه أعترف بالسيد المسيح كرسول على أنه كلمة الله الى مريم ، و أنه روح منه ، و أعتبروا هذا الدين الجديد بمثابة فرقة من فرقهم التى كانت تدعو الى الوحدانية. واعتمادا على هذا الشعور فان المسلمين المضطهدين بمكة ولوا وجوههم فى بداية الأمر شطر الحبشة و هاجر بعضهم اليها مرتين . أما اليهود الذين يزعمون ان المسيح هو دجال ، و هو غير المسيح المنتظر ، فقد رأوا فى الاسلام دينا يتنافى مع عقائدهم فناصبوه العداء ، و لا سيما فى المدينة حيث بدا خطره عليهم. و لهذا و ذاك فأن الأسلام لم يلبث أن تجاوب مع النصارى ، و أنقلب على اليهود ، و خف لمطاردتهم.

و الآية القرآنية التى نزلت فى ذلك الحين تشير صراحة الى موقف

كل منهما تجاه الاسلام.

"ولتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود و الذين أشركوا، و لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا أنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين و رهبانا و أنهم لا يستكبرون" سورة المائدة.

على أن تجاوب الاسلام مع النصارى لم يبق محليا فقط و أنما تجاوز ذلك الى الناحية السياسية العالمية. فلما أستولت جيوش برويز (كسرى الثانى) على انطاكية و دمشق و القدس سنة ٦١٤م حيث أنتزعوا الصليب الذى صلب عليه المسيح على ما يعتقدون، و بعثوا به الى المدائن عاصمة الساسانيين، ثم أستولوا على الأسكندرية و شطرا من مصر، لما حصلت تلك الكارثة بالنسبة للبيزنطينيين، برز انحياز الاسلام لهم بينما كان أهل مكة و سائر المشركين يهللون ويكبرون لهذا الأنتصار الذى أحرزه كسرى، و قد وجد هؤلاء فى هذه المناسبة فرصة لابداء الشماتة بالمسلمين فكانوا يتحدونهم بقولهم: "أنكم أهل كتاب، و أن النصارى أهل كتاب مثلكم. و قد ظهر أخواننا أهل فارس على اخوانكم من الروم، و لنظهرن عليكم جميعا."

فاذا بالرسول الأعظم يبشر المسلمين بما لم يكن فى الحسبان فيخفف عنهم آلامهم. يبشرهم بما أوحى اليه على أعتباره وعدا من الله الذى لا يخلف وعده.

"ألم - غلبت الروم فى أدنى الأرض و هم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل و من بعد، و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء و هو العزيز الرحيم. وعد الله لا يخلف الله وعده و لكن أكثر الناس لا يعلمون" سورة الروم.

و لكن المشركين هزأوا بهذا الوعد الذى نقله اليهم أبو بكر الصديق و كذبوه، و راهنه أحدهم أبى بن خلف الجمحى على عشر

قلائص ''أبل شابة''. و قبل أن ينتهى موعد الرهان هاجر محمد و المسلمون الى يثرب ''٦٢٢ م'' ثم مات أبى من جراح أصابته من يد محمد (ص) فى غزوة أحد فكفل ورثته الرهان.

و خلال ذلك كان قد أستتب الأمر لهرقل فى قسطنطينيه فتصدى للفرس. و قد أتيح له من بعد ليس أسترجاع ما فقد أسلافه فى آسيا الصغرى فقط و أنما طارد جيوش كسرى حتى أستولى سنة ٦٢٨ على قصره فى دستكرد ، وهم بحصار المدائن عاصمة كسرى و لكنه عدل عن ذلك لفرار مليكها. وحينئذ و قد تم الانتصار للروم على الفرس أستوفى أبوبكر الرهان من ورثة أبى، و تصدق به على الفقراء أمتثالا لأمر نبيه.

تجاوب المسيحية مع دعوة الرسل و تنكر المجوسية لها

كان للدول فى ذلك الحين دوائر أستخبارات و عمال يوجهون الرأى العام فى البلاد الأخرى كما هو الأن. لذلك لم تكن تخفى عليهم خافية عما يجرى فى تلك البلاد. و قد بينت فى كتابى ''فلسفة تاريخ محمد'' أن المزيد من الضغط الذى أصاب المسلمين فى مكة بعد أنحيازهم للروم فى تلك الحرب الذى أضطرهم للهجرة الى يثرب أنما كان يعود لدولة الفرس التى حقدت عليهم من جراء تاييد المسلمين لأعداء هذه الدولة الا الداء فحرضت على اضطهادهم و النكاية بهم.

و من هنا كان الفرق كبيرا فى مقابلة عواهل الفريقين النصارى و المجوس للرسل التى وجهها النبى الى كل منهم حاملين دعوته لهم للاسلام.

ففى السنة السادسة للهجرة أرسل محمد (ص) كتبه الى عواهل النصارى هرقل فى القسطنطينية ، و النجاشى فى أثيوبيا ، و هودة بن على فى عمان و اليمامة ، و المقوقس فى الأسكندرية يدعوهم فيها الى الاسلام ، فأحسن هؤلاء أستقبال الرسل بينما أن كسرى برويز

أنتفض عند تلقى الدعوة ، و مزق الكتاب ، و صرخ قائلا : ''يكاتبنى يكاتبنى بهذا و هو عبدى '' و هو لم يقف عند هذا الحد بل أمر عامله على اليمن بازان ''أن ابعث الى بهذا الرجل الذى فى الحجاز'' فأمتثل هذا و كتب الى سيدنا محمد يأمره بالطاعة و القدوم اليه سريعا. و كان يحمل أمر بازان رسولان فأستمهلهما النبى فى الجواب الى الغد. فاذا بالعناية الألهية تبرز و اذا بالفرج يأتى من حيث لا يحتسب. ذلك بان كسرى برويز كان قد أوصى بولاية العهد لأبنه مردز، فكانت هذه الوصية وبالا عليه لأن أبنه الآخر شيرويه خرج عليه ، و ألقاه فى غياهب السجن حتى مات. فعدا أن هذه الثورة أشغلت الفرس عن كل شئ آخر فان شيرويه المشار اليه ما أن أستتب له الأمر حتى أمر بان لا يتعرض أحد لمحمد (ص). فجاء ذلك مصداقا للآية : ''أنا نزلنا الذكر و أنا له لحافظون.''